

أهمية الحرية في التفكير



تعد الحرية الفكرية والعقائدية أحد أنواع الحرّيات الاجتماعية. فالإنسان لا بدّ له أن يكون حرّاً في كافة شؤونه الحياتية، وأن لا يقف أي سد أو عائق في وجه تقدمه وحركته. فالحرّية الفكرية من أكثر المواهب قدسيّة عند الإنسان والتي يحتاج إليها حاجة ماسة، فالتفكير هو من أهم عناصر الإنسان التي لا بدّ من تربيتها، ولا بدّ من وجود الحرّية الفكرية عند الإنسان لأنّ التربية الفكرية بحاجة إلى حرّية، أي إلى عدم وجود عوائق وعوائق تعرقل التفكير. وتُطرح اليوم في عالمنا المعاصر قضية بالغة الأهميّة باسم "حرّية العقيدة"، لا سيّما بعد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وقد جاء في مقدمة هذا الإعلان: "نعلن عن ظهور عالم الناس فيه أحراز في التعبير عن عقائدهم ولا مجال فيه للخوف والفقر، وهو ما يمثل أسمى الأهداف البشرية". والعقيدة هنا عامة بما فيها العقيدة الاجتماعية، والسياسية، والدينية. هذا يعني أنّ المطمح الإنساني الكبير هو ظهور عالم حر يُتاح فيه لكلّ أحد التعبير عن عقيدته ورأيه بحرّية، ولكلّ أحد الحقّ في انتخاب العقيدة التي تروق له، والتعبير عنها بحرّية، ولا بدّ في عالم كهذا أن يزول الخوف، والخوف، ويستتبّ الأمن بشكل كامل، ويعم الرخاء الاقتصادي. وهذا هو العالم الذي أُعلن عنه كهدف إنساني. وجاء في المادة (19) من ذلك الإعلان: "لا بدّ لكلّ أحد من التمتع بحقّ حرية العقيدة والبيان، ويشمل هذا الحقّ عدم شعوره بالخوف والاضطراب لما لديه من عقائد. وأن يكون حرّاً في اكتساب المعلومات والأفكار ونشرها بكلّ الوسائل الممكنة وبدون أيّة اعتبارات حدودية".

ونريد أن ندرس هذه القضية من وجهة النظر الإسلامية ونرى هل يقر الإسلام حرّية الفكر والعقيدة، أي هل أنّ الإسلام يتبنّى هذه الحرية أم لا يتبنّاها؟ ولا بدّ لنا على هذا الصعيد أن نفرق بين الفكر وبين ما يُسمى اليوم غالباً بالعقيدة. فهناك تفاوت بين الفكر والتفكير وبين العقيدة. فالتفكير قوة لدى الإنسان ناشئة عن التعقل.

الحرّية الفكرية نابعة عن الموهبة الإنسانية التي تتيح له التفكير في القضايا، ولا بدّ أن تكون هذه الموهبة حرة باستمرار لأنّ التطور والتكميل الإنساني رهين بها.

فالتفكير منطق، والإنسان لديه قوة باسم قوة التفكير، وبإمكانه أن يحسب ويختار في القضايا على أساس الفكر والمنطق والاستدلال.

وبما أنّ الإنسان موجود عاقل ومفكّر، لهذا يتميّز بالقابلية على التفكير في القضايا، مما يتبيّح

لـه اكتشاف الحقائق إلى حد ما وبـما تسمح له به طاقاته، مـهما كان نوع ذلك التـفكير، سواء كان تـفكيراً استدلاليـاً واستنتاجـياً وعقلـياً أو تـفكيراً تـجـريبيـاً . فـإـنـ قد وـهـبـ الإنسانـ مثلـ هـذـهـ القـوـةـ، وـمـنـجـهـ العـقـلـ كـيـ يـفـكـرـ بـهـ وـيـكـتـشـفـ الـمـجـهـولـاتـ، لـأـنـهـ يـرـدـ عـلـىـ هـذـاـ الـعـالـمـ جـاهـلاًـ: (وـالـلـهـ أـخـرـ جـاهـلاًـ كـمـ مـنـ بـطـونـ أـمـهـاتـكـمـ لـاـ تـعـلـمـونـ شـيـئـاًـ) (الـنـحلـ/78ـ).

فالـإـنـسـانـ يـطـلـعـ جـاهـلاًـ عـلـىـ الدـنـيـاـ وـلـابـدـ لـهـ أـنـ يـعـلـمـ. فـكـيفـ يـعـلـمـ؟ يـجـبـ أـنـ يـعـلـمـ عـنـ طـرـيقـ التـفـكـيرـ والـدـرـاسـةـ، وـالـتـفـكـيرـ هوـ أـنـ يـفـكـرـ الـإـنـسـانـ فـيـ كـلـ قـضـيـةـ بـمـاـ لـدـيـهـ مـنـ اـسـتـعـادـ وـمـوهـبـةـ وـيـصـلـ إـلـىـ النـتـيـجـةـ عـنـ طـرـيقـ عـلـمـيـ، وـهـلـ بـإـمـكـانـ الـإـسـلـامـ أـوـ أـيـةـ قـوـةـ أـخـرـىـ أـنـ تـقـولـ بـأـنـ الـإـنـسـانـ لـاـ حـقـ لـهـ فـيـ التـفـكـيرـ؟ كـلـ، فـالـتـفـكـيرـ عملـ ضـرـوريـ لـاـ غـنـىـ عـنـهـ، وـلـابـدـ لـلـبـشـرـيـةـ مـنـهـ. وـالـإـسـلـامـ لـيـسـ قـدـ منـحـ حـرـيـةـ التـفـكـيرـ فـحـسـ وـإـنـماـ عـدـهـاـ كـإـحـدىـ الـوـاجـبـاتـ، وـإـحـدىـ الـعـبـادـاتـ. وـقـلـمـاـ نـدـرـكـ أـهـمـيـةـ تـأـكـيدـ الـقـرـآنـ عـلـىـ التـفـكـيرـ لـأـنـّـاـ نـقـتـصـرـ مـطـالـعـنـاـ عـلـيـهـ وـلـاـ نـطـالـعـ كـتـبـاًـ أـخـرـىـ. فـأـنـتـ لـنـ تـجـدـواـ كـتـبـاًـ آخـرـ غـيرـ الـقـرـآنـ -ـ سـوـاءـ كـانـ دـينـيـ أـوـ غـيرـ دـينـيـ -ـ يـؤـكـدـ كـلـ هـذـاـ التـأـكـيدـ عـلـىـ التـفـكـيرـ وـيـدـعـوـ الـإـنـسـانـ إـلـيـهـ إـلـىـ هـذـاـ الـحدـ. إـنـهـ يـبـحـثـ عـلـىـ التـفـكـيرـ وـيـاسـتـمـرـارـ وـفـيـ كـافـةـ الـمـجـالـاتـ: فـيـ التـارـيـخـ، وـالـخـلـقـ، وـالـخـالـقـ، وـالـأـنـبـيـاءـ، وـالـنـبـوـةـ، وـالـمـعـادـ، وـتـعـالـيمـ الـأـنـبـيـاءـ. وـهـوـ يـحـفـلـ بـالـحـثـ عـلـىـ التـفـكـيرـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـفـضـيـاـ. وـقـدـ عـدـ الـإـسـلـامـ التـفـكـيرـ عـبـادـةـ. وـهـنـاكـ الـعـدـيـدـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ الـتـيـ تـدـورـ حـولـ هـذـاـ الـمـضـمـونـ: "ـتـفـكـرـ سـاعـةـ خـيـرـ مـنـ عـبـادـةـ سـنـةـ"ـ، وـ"ـتـفـكـرـ سـاعـةـ خـيـرـ مـنـ عـبـادـةـ سـتـيـنـ سـنـةـ"ـ وـ"ـتـفـكـرـ سـاعـةـ خـيـرـ مـنـ عـبـادـةـ سـبـعينـ سـنـةـ"ـ. وـهـذـاـ التـغـيـرـ فـيـ التـعـابـيرـ فـيـ الـتـعـابـيرـ وـكـمـ ذـهـبـ إـلـىـ ذـلـكـ الـكـثـيرـ مـنـ الـعـلـمـاءـ يـعـودـ إـلـىـ الـاـخـتـلـافـ فـيـ نـوـعـ التـفـكـيرـ وـمـوـضـوعـهـ. فـهـنـاكـ تـفـكـيرـ يـقـوـدـ الـإـنـسـانـ لـمـاـ يـعـادـلـ عـامـاـ مـنـ الـعـبـادـةـ، وـهـنـاكـ تـفـكـيرـ آخـرـ يـقـوـدـ لـهـاـ يـعـادـلـ سـتـيـنـ عـامـاـ مـنـ الـعـبـادـةـ وـآخـرـ لـهـاـ يـعـادـلـ سـبـعينـ عـامـاـ. وـقـدـ وـرـدـ فـيـ الـأـحـادـيـثـ: "ـكـانـ أـكـثـرـ عـبـادـةـ أـبـيـ ذـرـ، التـفـكـيرـ"ـ. فـأـبـوـ ذـرـ الـذـيـ يـلـيـ سـلـمـانـ أـوـ يـقـفـ مـعـهـ فـيـ مـسـتـوـيـ إـيمـانـيـ وـاحـدـ -ـ وـيـمـكـنـ الـقـوـلـ بـأـنـهـ لـمـ يـأـتـ أـحـدـ نـظـيرـاـ لـهـمـاـ فـيـ الـإـيمـانـ بـعـدـ الـمـعـصـومـيـنـ -ـ كـانـ كـثـيرـ الـعـبـادـةـ، إـلـاـ أـنـ"ـ التـفـكـيرـ كـانـ أـكـبـرـ عـبـادـةـ.

المصدر: كتاب الحرية عند الشهيد المطهرى